الواقع الأنثروبولوجي اللغوي في الجزائر

الأستاذة : ملوكي جميلة
جامعة ابن خلدون تيارت

مقدمة:

ترتبط اللغة بالمجتمع إرتباطا وثيقا، فهي المرآة التي تعكس كل مظاهر التغيير والتحول في المجتمع، رقيّا كان أو إنحطاطا، تحضرا أو تخلفا وقد استأثرت اللغة العربية بإهتمام غير عادي في القرنين الأخيرين، فشكلت موضوعا مشتركا في مختلف الأبحاث والدراسات، فضلا عن كونها بداتها عالما مهمًا ومقصدا متعدد الأبواب، تُشّد إليه الرحال.

ولأنها الوسيلة والأداة التي تستخدم للتعبير عن مختلف ما يجول في النفس والعقل، والذاكرة أو الوعاء الذي تحفظ فيه كل إنجازات وأفكار ومفاهيم وتاريخ الأمم.

وتعتبر اللغة سلطة الثقافة وركن الهوية الجماعية ،ولا أهمية لها بدون مستخدميها، فإذا تراجعت وشابها الهجين، وكثر فيها الدخيل تزعزعت الذات الثقافية، وضعف الإنتماء وأقبلت بعض الشرائح عن الانتقال والتنقل بل الهجرة إلى لغة أخرى. وغالبا ما تكون لغة المستعمر خطة لإحتلال الألسنة والعقول لضمان النفود والتبعية إذا ما غادر الديار.

سوف نحاول أن نعالج في هذا المقال مجموعة من النقـاط ، مـع حدر مطلوب لما لموضوع اللغة من دقة في الدراسة والمصطلحات قـد لا يقدر على خوض غماره إلاّ أئمة اللغة والمتخصصين في أدابها.

وعليه سـوف نقـدم المقـال بعنـوان – الواقـع الأنثروبولـوجي اللغوي في الجزائر – مشيرين فيه إلى العناصر التالية:

1* معنى الأنثروبولوجيا

2* معنى اللغة

3* معنى الأنثروبولوجيا اللغوية

4* الواقع الأنثروبولوجي اللغوي في الجزائر

أ* التنوع اللغوي واللهجات في الجزائر

ب* وأخيرا السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه اللغة في الجزائر

1- معنى الأنثروبولوجيا:

يعتبر علم الأنثروبولوجية من بين العلـوم الإنسـانية الحديثـة التي اهتمت في دراستها بالإنسان، وقد نلاحظ تأخرا كبيرا في انتشـار هذا العلم وبالخصوص في البلدان العربية، وذلـك راجـع لعـدة أسـباب نذكر منها إرتباطـه بالحركـات الاسـتعمارية الـتي وظفـت هـذه المعرفـة العلمية للسيطرة على الدول، مما دفع هذه الأخيرة، علـى اعتبـاره علمًـا استعماريا.

فلم يظهر في الجامعة الجزائرية إلاّ في فترة الثمانينات، كما نلاحظ من خلال الدراسات التي قام بها الغرب أنه كان متصلا في نشأته بالعلوم الأخرى كعلم الاجتماع، وبالتالي لم تتهيكل محاوره ولا ميادينه إلاّ بعد فترة زمانية طويلة، حيث إهتم علماء الأنثروبولوجية في بدايات محاولاتهم بدراسات الشعوب القديمة، أو كما يصطلح عليها بالقبائل البدائية، فإقتصر ميدان الدراسة على بعض القبائل التي كانت تنتشر في أسطراليا، وأمريكا وإفريقيا،

فحاول الباحث الأنثروبولوجي دراسة الظاهرة الإنسانية وملاحظة تطور الإنسان من خلال عملية الوصف التي كان يقوم بها حين زيارته لهذه القبائل أو من خلال الأخبار – أخبار الرحالة...والتجار –.

ولكن بتطور هذا العلم بات واضحًا تقلص ميدان دراسته، فعدد القبائل كان محدود، والدراسات التي قدمت حول تطور الإنسان أصبحت نسبية، لأن المجتمعات الحديثة المتطورة، إزدادت تعقيدا في تركيبتها الاجتماعية وفي نمط حياتها وبالتالي إتسعت المفاهيم التي يستعملها أفراد المجتمع.

وكلمة بدائي سرعان ما تعرضت للطعن والتجريح. وبدأت تزول من أذهان كتّاب القرن التاسع عشر، والصفة (أي الزوال) صارت ملازمة لهذه المجتمعات هي الأخرى التي أصبحت في طريق الزوال.

فقد عرفت على أنها "علم الإنسان، وهو علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته، وفي السلالات البشرية وخصائصها ومميزاتها"[1]

لكن بحوث الأنثروبولوجيا أصبحت منفتحة تلحم ماضي البحث الثقافي بحاضره ثم بمستقبله وهو ما نجده في التعريف الذي وضعه الدكتور شاكر سليم في قاموس الأنثروبولوجيا الصادر عام **1981** حيث يختزل تعريف هذا العلم في قوله:"إن الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعيا وإجتماعيا وحضاريا"[2]

ويمكننا أيضا أن نحصل على تعريف آخر للأنثروبولوجيا، ليس من خلال تحديد الدلالة المعجمية للمصطلح ولكن من خلال ما ينجزه الأنثروبولوجيون في حقل إنشغالاتهم، حيث كتبت "مارجريت ميد"تقول:"نحن نصف الخصائص الإنسانية، البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان وفي سائر الأماكن، ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة، كما نهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجيا، ونُعْني أيضا يبحث الإدراك العقلي للإنسان، وإبتكاراته ومعتقداته ووسائل إتصاله"[3].

وبإختصار فإن هـذا العلـم يهـتم بدراسـة الإنسـان ولا تتقيد الدراسة إلاّ به، أي أن عامل المكان والزمان لا يتحكمـان في الدراسات الأنثروبولوجي ، وقد تنوعت وتشعبت فروعه ما جعلها تعـرف تخصصـات عديـدة نـذكر منهـا الأنثروبولوجيـا الطبيعية الفيزيفية والتي تهـتم بعلـم التشـريح والأنثروبولوجيـا الاجتماعيـة والـتي تهـتم بالتحليـل الاجتمـاعي للمجتمعـات وبالخصوص البدائية.

والأنثروبولوجيا الثقافية والتي تهتم بدراسـة طرائـق العـيش في مجتمع ما سواءا بدائي كان أو مدني.

والأنثروبولوجيا التطبيقية، حيـث تهـتم هـذه الأخـيرة بتطبيـق النظرايات الأنثروبولوجية على الظواهر ومن بين هـذه الفـروع التي إهتمت باللغة واعتبرتها أحد فروعها هـي الأنثروبولوجيـا الثقافية، يقـول عـاطف وصـفي:"يسـتخدم المـنهج العلمـي في دراسته اللغات، و يعتبر أحد فروع الأنثروبولوجية الثقافيـة لأن اللغة أحد عناصر الثقافة، بل هي أهم تلك العناصر"[4]

ومن جملة ما إستفاد منه الباحـث الأنثروبولـوجي مـن الباحث اللغوي هو جملة التقنيات لإكتساب لغة ما. فالغويـات تنتقسم إلى نوعين:

علم اللغات الوصفي.

وعلم أصوات اللغة.

واهتم الأنثروبولوجيون في براتيهم الأولى بعلم اللغات الوصفي وذلك من أجل العودة بهذه الظاهرة إلى جدورها القديمة من خلال دراساتهم للقبائل. وبالتالي إحتك عالم اللغة مع عالم الأنثروبولوجيا حتى يتبادلان معرفيا تقنيات إكتساب وتحليل اللغة أنثروبولوجيا. ونشأ عن هذا التعاون والتبادل والتزاوج علم الأنثروبولوجيا اللغوية الذي سوف نعود إليه لاحقا.

ولأن موضوع البحث هذا هو اللغة فإن الخطة السابقة فرضت علينا تقديم تعريف لها.

تعريف اللغة:

اللغة كما يعرفها ابن جني في الخصائص "هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، أمّا تصريفها فعله من لغوت أي تكلمت"[5].

فهي تحقق كنظام إشاري الوظائف المعرفية والتواصلية في عملية النشاط الإنساني، وتقوم بدور هام في تشكيل الوعي الذي تنتفي إمكانية وجوده خارجها.

إضافة إلى أنها وسيلة للتواصل والاستمرارية، فبواسطة اللغة يُرْمزُ ومن خلالها يُذل، بحيث تأتي العبارات بسيطة ومركبة قد تحمل دلاله واحدة وقد تتعددا المعاني بحسب المضمون والموضوع، كما قد تتعدد بتعدد المتغيرات الحضارية والثقافية

والجغرافية واللغوية التي تميز الشعوب عن بعضها البعض وفق تجاربها الخاصة.

وعرّف علماء النفس اللغة فرأو أنها مجموعة إشارات تصلح للتعبير عن حالات الشعور، وهذا التعريف يتضمن وظيفة اللغة إجمالا وهناك تعريفات عديدة أخرى تتفق حينا وتختلف آخر، ولعل مصدر التباين في هذه التعريفات ناشئ عن منطلقات أصحابها الفكرية، فمن تعريف وصفي خارجي إلى تعريف نفسي داخلي، إلى آخر يمثل نظرة فلسفية معينة لواقع الإنسان، ووجوده، ونشأته، علمًا أن الناظر إلى واقع اللغة الإنسانية- وصفا وتقريرا- يجد أنها أصوات وألفاظ، وتراكيب منسقة في نظام خاص بها، لها دلالات ومضامين معينة، يعبر بها كل قوم عن حاجاتهم الجسدية، وحالاتهم النفسية ونشاطاتهم الفكرية(6)

"والعربية لا تخرق المألوف في حقيقة النطق الإنساني، ولكنها ومن باب الإنصاف، وليس التعصب، لأنه صفة الجاهلين، إمتلكت من المقومات ما يميزها عن كل اللغات التي يعبر ويتوسل بها البشر على إختلاف أجناسهم.

ومن تلك المقومات عمرها المديد الذي يمتد إلى آلاف سنين خلت، وغناها من حيث المفردات الحقيقية،...والعربية لغة متكاملة من حيث الصرف والاشتقاق والإعراب، ومن حيث التنويع الواسع

في الجموع والمصادر وحروف العطف...إضافة إلى ذلك إحتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها لغة سامية كاملا، وفي هذا كله برهان ساطع على أن أمة هذه اللغة وصلت إلى تفكير دقيق، عميق،..وقد وصلت من النضج إلى درجة رفيعة"[7].

واللغة اضافة إلى مكونات أخرى كالتاريخ تمثل العامل الأساسي في تكوين الأمة، ولعلها تعتبر من الأساسيات الهامة التي تربط نفوس الأفراد على إختلاف المناطق والدول، التي ينتمون إليها. لذلك وصفت في حالات كثيرة أنها تمثل "روح الأمة" والتي تخزن كل ما لذى الشعوب من إنجازات في مختلف مجالات الحضارة.

فالفرد بواسطة اللغة يندمج في المجتمع وبها يتلقى تراث أمته الفكري والوجداني والأخلاقي والديني والاجتماعي والسياسي.

وتصدق هذه الحقيقة على اللغة العربية كما تصدق على أي لغة قومية عريقة أخرى، فاللغة العربية قد وجدت قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون، وتميزت منذ القدم بغنى مفرداتها وأدواتها الوصفية والتعبيرية لكنها بالإسلام وحده إنتشرت في أصقاع الأرض، وإكتسب أهمية خاصة وبُعدا عالميا فشكلت بذلك أمة واحدة تنطق بلسان عربي مبين، وصفه القرآن الكريم بهذا الوصف، وكرسه لغة الحياة والدين، كما أنه وصف الأمة التي خرجت تنطق به بخير أمة.

وميدان دراسة اللغة واسع جدا، فهو متغير تبعا لتطور حركة المجتمع وللعلاقة التي تجمع بين اللغة ومختلف التحولات الاجتماعية والفكرية والنفسية، فلا يمكن دراستها بعيدا عن واقع الحياة أو

مستجداتها، فبمجر كونها أدات تعبيرية، فإن ذلك يعطيها صفة الملازمة وبالتالي طابع التأثر. وهذه الحقيقة تؤكدها المراحل التاريخية المختلفة التي مرت بها اللغة والتي سوف نحللها في العناصر اللاحقة.

وقد إرتفعت وتيرة الإهتمام باللغة بشكل ملحوظ وذلك لإعتبارات عدة وضمن مجالات متعدة. والتي من بينها المجال الأنثروبولوجيا

3-الأنثروبولوجيا اللغوية:

تعتبر اللغة أهم عنصر في حياتنا، ولا يمكن الإستغناء عنها مهما تحددت وسائل الإتصال المختلفة لأهمية الدور الذي تلعبه اللغة في حياتنا.

ودراسة اللغة يعتبر من الأمور التي أصبحت شائعة وهامة في معظم الجامعات والمعاهد، ولم تعد دراستها تقتصر على أقسام اللغة العربية أو اللغات الأجنبية وإنما إمتد باعتبارها ظاهرة مجتمعية إلى إهتمامات الأنثروبولوجيا وعلم الإجتماع وعلم النفس...وعلم الإتصال والذي يعتبرها (اللغة) هذا الأخير وسيلة لنقل المعارف والمعاني والأفكار كمستودع للرموز والإشارات والتوجيهات...

ومعنى ذلك أن الإهتمام باللغة تجاوز حدودها التقليدية بإعتبارها أداة حضارية كبرى ذات تأثير بعيد المدى في الآداب والعلوم والفنون فضلا عن أنها في مجال التأثير على الرأي العام تستخدم من صناع القرار وواضعي السياسة في كثير من المجتمعات للتأثير في صنع القرار والتوجيه والتغيير.

وبإختصار نستطيع القول بأن العلماء بدأو يهتمون بها إهتماما بالغا وبدورها في الحياة البشرية، ومن أهمهم علماء الأنثروبولوجيا.

وسوف لن نتكلم في هذا المقام عن الدراسات الأنثروبولوجية العديدة التي أقيمت حول أصل اللغة ونشأتها في المجتمعات ونضرياتها وفروعها وإنما سوف نركز عن التأثيرات المتبادلة بين الثقافة واللغة.

إن البحث الأنثروبولوجي في موضوع اللغة يعتبرها جزء من ثقافة المجتمع الإنساني المدروس. والباحث اللغوي الأنثروبولوجي في دراسته الميدانية "يقف على طبيعة اللغة التي يدرسها، وعلى أوجه إختلافها وتشابهها مع اللغات الأخرى، كما أنه يمكنه معرفة ما يربطها من صلات مع اللغات المختلفة، ويمكنه أن يتفهم الدور الذي تلعبه اللغة في حياة من يتكلم بها، وما هي وظيفتها الأساسية في المجتمع...وهي المفتاح الأساسي الذي يفتح لنا باب الإطلاع والكشف عن ثقافة المجتمع الذي نقوم بدراسة لغته"[8]

فاللغة في مجال البحث الأنثروبولوجي تعتبر إحدى مكونات الوجود الثقافي لأي مجتمع، بل جزء هام يتأثر سريعا بأي تغيير يحدث في الثقافة العامة للمجتمع. والتغيير اللغوي

هو تغيير ثقافي بالدرجة الأولى، ويحدث للغة ما يحدث للأفراد والمجتمعات من صراع وتنازع على البقاء والسيطرة. وتختلف نتائج تلك الصراعات بإختلاف الأهداف والغايات، والذي يهمهنا من ذلك هو أن الصراعات بين المجتمعات والثقافات يؤدي إلى تغيير اللغة وإختلاف أحوالها. وتعدد ألفاضها وتحوير مراد فاتها ويحدث أن تنزح عناصر لغوية أجنبية إلى لغة بلد محلية على إثر فتح أو إستعمار أو حرب أو حماية أو هجرة، فيحدث إثر ذلك نزوج عنصر أجنبي ينطق بلغة غير لغة أهل البلد.

"ويؤدي ذلك إلى إشتباك اللغتان في صراع ينتهي إلى إحدى النتيجتين،أحيانا تنتصر لغة منهما على الأخرى فتصبح لغة السكان قديمهم وحديثهم، وأحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فيعيشان جنبًا إلى جنب"(9)

ومن أمثلة تغلب لغة ما على أخرى ما حدث للأنجليز السكسونيين حنما نزحوا من أواسط أوربا الى إنجلترا ولم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات التي كانت موجودة، والتي كان يتكلم بها أسلافهم والسكان الأصليين والنتيجة في كل ذلك أن اللغة التي يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع، بل إن طوال إحتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها في كثير من

مظاهرها، وبخاصة في مفرداتها، فترى أن الألفاظ الأصلية للغة الغالبة يتابها الكثير من التحريف من ألسنة المتحدثين للناطقين بها (المغلوبين لغويا)، فتبتعد بذلك في أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى، ولهذا يحدث التغيير فيها[10].

ونستطيع القول أن الحروب التي طالت مدتها الزمنية تؤدي إلى إحتكاك طويل ينجم عنه نقل آثار بعضها إلى البعض، ومثل ذلك الحروب الصليبية التي نقلت الكثير من اللغات الأوروبية وخاصة الفرنسية والإنجليزية التي نلاحظ مدى إنتشار مفرداتها في اللغة العربية واللهجات المتعملة بين سكان أقطارها، وهو ما أضاف إليها قدر من التغيير في المصطلحات الأصلية عند الناطقين بها. وهذه التغيرات التي تصيب اللغة و هي جزء من ثقافة المجتمع ككل هي محل دراسة علماء الأنثروبولوجيا اللغوية ، بحيث يهتمون بها من حيث كيفية تغيُّر اللغة في مجتمع ما على مرّ الزمن وتنتشر وتنعكس على جوانب أخرى من الثقافة.

4-الواقع الأنثروبولوجي اللغوي في الجزائر

أ التنوع اللغوي واللهجات في الجزائر:

إذا أردنا أن نصف الواقع اللغوي في الجزائر فإننا نجده متعددا ومتنوعا ومتداخلا، فقد عرفت الجزائر اللغة العربية بقدوم الفتح الإسلامي إلى شمال إفريقيا، وكانت البربرية اللغة

السائدة، ولما ذخل البربر الإسلام وإختلطوا باللغة الفاتحة، لغة الدين والتعامل، فمن الطبيعي أن تنال هذه اللهجة أو اللغة التي كانت سائدة التغيير والتحريف . وبدأت ألسنة الناطقين بها تتعود على أصوات العربية وطرائق النطق والتعبير بها، ومع مرور الزمن تشكل عن طريق هذا التمازج لون لغوي خاص يجمع بين اللهجة البربرية واللغة العربية.

يقول ابن جني "أعلم أن العرب تختلف أحوالهم في تلقي الواحد منها لغة غيره، فمنهم من يخف ويسرع، فيقول ما يسمع، ومنهم من يستعصم فيقيم على لغته البتة، ومنهم من إذا طال تكرار لغة غيره عليه ألصقت به وَوُجدت في كلامه"[11]

وهذا ما حدث في لغة الجزائري من تأثير وتأثر بين العرب والبربر، فقد شهدت الجزائر في عصور ما قبل التاريخ عدة غزاة من رومان ووندال وبيرنطيين، وكان لهذا الأثر على سكانها، كما شهدت وجود الفنيقيين، والتي مازالت آثارهم ومعالمهم موجودة إلى يومنا هذا.

وعموما يمكن تقسيم الواقع اللغوي في الجزائر إلى قسمين:

اللغة العربية الفصحي:التي تستخدم في المناسبات الرسمية والكتابة والأدب والتعليم والإدارة وأماكن العبادة، وهي لغة القرآن، حيث كانت موجودة في الأقطار العربية قبل ظهور الإسلام لكن بالإسلام

وحـده وصـلت إلينـا بغنـى مفرداتهـا وأدواتهـا الوصـفية والتعبيريـة وبقواعدها النحوية والصرفية.

واللغة الثانية هي اللغة العامية أو اللهجة الدارجة والـتي تستعمل في الحياة اليوميـة وفي المحادثـات سـواءا كـان ذلـك في البيت أو الشارع أو العمل.

وقد أعطى الأستاذ الدكتور صـالح بلعيـد مـن جامعـة مولـود معمري بتيزي وزو تقسيما لها وفق مجموعة من المتغيرات أحصاها في:

"ممارسة اللغة الأمازيغية:وهي ممارسة ضيقة في أماكنها الجغرافية حيـث يتواجد الناطقون به، ويتواصلون، بها في خطاب وظيفيا يومي.

ممارسة الدوارج:وهي ممارسة واسعة الإنتشار، حيث تتواجـد في معظـم ربوع الوطن لمالها من سهولة التواصل.

ممارسة اللغة الفرنسية:وهي ممارسة محدودة، إذ تكون في خطاب المدرسة والجامعـة، وفي الإدارة والمصـالح الماليـة والتقنيـة والجوانـب العلمية، وعند بعض الأسر الجزائرية، وبشكل دقيق عند أسـر سـاكنة الشمال.

ممارسة الهجين والخليط:وهـي ممارسـات آنيـة تحصـل بـدَواع عرضية، وليس لها قاعدة معينة تتحكم فيها، مثل ذلك الهجـين الـذي ينشـأ في مناسـبات كـرة القـدم:One -Too- three viva l'Alérie أو مـا نسمعه في لغة الإشهار: عيش La vie

ممارسة التعدد اللغوي: يحصل هذا في الجامعات، وفي لغة النخبة، حيث أن النخبة تملك لسانين أو أكثر، ويحصل الخطاب بهذا التعدد في مجالات خاصة، وفي أحوال معينة.

ممارسة الإحتكاك اللغوي: وتحصل بفعل الإحتكاك الذي يكون بين لغتين: عربية دارجة/ فرنسية، عربية/ أمازيغية، عربية فصيحة/ فرنسية. دوارج/ أمازيغية. وهذا الاحتكاك له قوانينه التي يسير عليها، ويحدث على مستويات متنوعة: صوتية، دلالية، نحوية، كَلم، مسكوكات لغوية"[12] إن المتمعن للواقع اللغوي في المجتمع الجزائري منذ الفتح الإسلامي وإلى يومنا هذا يلاحظ وجود أشكالا متنوعة تميز الأنساق اللغوية المنتشرة في الجزائر.

فبقدوم الفتح الإسلامي، تجاوب البربر الأمازيغ مع لغة الإسلام الذي أمنوا به، بل خدمت اللغة الأمازيغية اللغة العربية، إيمانا منهم بأنها لغتهم ولا يوجد بديل لها، ثم بعد ذلك ومع مجيء بني هلال وإمتزاجهم بالأمازيغ تشكلت لهجات مختلفة منحدرة من القبائل العربية التي رافقت الفتح في المجتمع الجزائري. ثم بعد ذلك جاء الإحتلال الفرنسي الذي أوقف تعليم اللغة العربية وفرض الفرنسية في التعليم بالمدارس مما أدى إلى إنتشارها في المجتمع وهنا بالذات تشكلت لهجة أخرى وهي العامية حيث أصبح المجتمع الجزائري يتحدث بها وهي عبارة عن خليط ومزيج من الكلمات العربية والكلمات الفرنسية.

وعلى اثر هذا يمكن تميز أربعة أنساق لغوية منتشرة بالمجتمع الجزائري وهي: اللغة العربية، اللغة الأمازيغية، اللغة الفرنسية، ولهجة الدارجة.

*فاللغة العربية هي اللغة الرسمية في الجزائر منذ عام 1963 وفقا لما حدده الدستور، وتدرس بالمدارس والجامعات، ويفهمها أغلبية السكان وهي لغة القرآن والعبادات حيث أنزل الله عز وجل بها كتابه المبين،فوحّدها وأثراها ومكّن لها البقاء في البلاد العربية وخارجها وحفظها في مادتها اللغوية وفي نظمها الصوتية والصرفية والنحوية.

***أما اللغة الأمازيغية**: فتستخدم في العديد من المناطق الجزائرية ولكنها توجد بشكل أساسي في منطقة القبائل وجبال الأوراس، كما يستخدمها الطوارق (أمازيغ الصحراء) في الصحراء الكبرى، رغم أنها كانت حسب "الدراسات اللغوية على المجتمع الجزائري"، منتشرة في جميع أقطار الجزائر، ورغم قدوم الفينيقيين وانتشار البونيقية واللاتينية واللغة العربية فيما بعد، إلاّ أن اللغة الأمازيغية ظلت منتشرة ومحافظة على بقائها إلى يومنا هذا، وإن كان مؤخرا قد إعتراها إشكالا في أوساط علماء اللغة واللسانيات في الجزائر وهو جدل قائم بخصوص ما إذا كان يتوجب تصنيف هذا النسق اللغوي في خانة اللغة، أو تصنيفه في خانة اللهجة، بسبب إفتقاره إلى نظام رمزي هجائي

وقواعد نحوية وصرفية موحدة بين جميع مستخدمي هذا النسق على المستوى الوطني، لذلك يرى البعض أنه مجموعة من اللهجات المحلية.

***أمّا اللغة الفرنسية:** فهي لغة التواصل المشترك في الجزائر بسبب إعتبارها جزء من المناهج التعليمية والإعتماد عليها بشكل كبير في الإعلام والتجارة والجامعات ،بل مازالت اللغة الفرنسية، اللغة المسيطرة على الأعمال وبعض الدوائر المهنية وبعض التخصصات الجامعية والقطاعات الإقتصادية والصناعية والصحافة لذلك يستطيع معظم الجزائرين فهمهاو التحدث بها، بل يستعملها العديد من السكان في حديثهم اليومي. رغم أن الحكومة الجزائرية مؤخرا قامت بإتباع سياسة التعريب في التعليم وحتى في الإدارات.

***أمّا** النسيق أرابع في لغة الجزائري والذي هو لهجة الدارجة أو العامية الجزائرية، فهو مزيج هائل مستمد من اللغة العربية الفصحي والأمازيغية والفرنسية، وحتى من بعض الرواسب اللغوية الأخرى كاللغة التركية مثلا والإسبانية، فقد وصف هذا الأخير (لهجة الدارجة) بكثرته وإتساعه حتى أن بعض الباحثين وجدوا أنفسهم عاجزين عن وصفها والإحاطة بها وهو ما جعل أ. د صالح بلعيد يعطيها (رأي لهجة

الجزائري) بعدا آخر وتقسيمًا آخر وفق ما سماه في دراسته عن ممارسة الإحتكاك اللغوي ب:

"**الممارسة اللغوية الجغرافية**:يمكننا الحديث عن تقسيم الممارسات اللغوية بحسب المناطق الجغرافية في الجزائر، ونظر للإتساع الذي تعرفه جغرافية بلدنا، تتوزع الممارسات اللغوية حسب المناطق الوطنية كما يلي:

***الشمال**:نجد فيه التوزع اللغوي بين الأمازيغية والعربية الدارجة والفرنسية.

***الشرق**:نجد فيه طغيان العربية الدارجة وقليلا من المازيغية والإيطالية.

***الجنوب**:نجد فيه العربية الدارجة وقليلا من الفصيحة والأمازيغية.

***الغرب**:نجد فيه العربية الدارجة والفرنسية وشيئا من اللغة الإسبانية.

2:**الممارسة اللغوية حسب التأثير الأجنبي**:هنا يقع الحديث عن أثر اللغات الأجنبية في مناطقنا الجغرافية، وهذا الأثر يظهر في الاستعمال اللغوي الذي تتخده هذه اللغات الأجنبية.

3-الممارسات اللغوية حسب الإنتشار ووالضيف:ونجد هذا التقسيم تراتبيا:

أ-اللغات ذات الإنتشار الواسع:العاميات أو الدوارج العربية وهي متنوعة...

ب-اللغات المحلية:الأمازيغية:بمختلف تأدياتها ولهجاتها.

ج-اللغات الكلاسيكية: العربية الفصحي واللغة الفرنسية"[13]

وهكذا نلاحظ أن المجتمع الجزائري تُميز لغته التنوع والتعدد بسبب العوامل التي ذكرناها كالعوامل التاريخية والتأثير والتأثر وتتوزع بتنوع المناطق الجغرافية والخصوصيات الثقافية والعوامل الخارجية.

وهذه الظاهرة ليست موجودة في الجزائر فحسب وإنما موجودة في سائر الأقطار العربية بل تتعداها إلى جميع اللغات الكبرى.

فقد كان اللغوي الأمريكي "تشار لزفر غيسون " charles Ferguson" أول من بحث في هذه الظاهرة اللغوية في العصر الحديث الذي نشر بحثه عنها في عام 1959 في مجلة اللغة " المريكية وعرفها بقوله:"وضع مستقر نسبيا توجد فيه بالإضافة إلى اللهجات الرئيسية للغة لغة تختلف عنها، وهي مقننة بشكل متقن، وهذه اللغة بمثابة نوع

راقي، ويستخدم وسيلة للتعبير عن أدب محترم، سواءا كان هذا الأدب ينتمي إلى جماعة في عصر سابق، أم إلى جماعة حضارية أخرى، ويتم تعلم هذه اللغة الراقية عن طريق التربية أرسمية، ولكن لا يستخدمها أي قطاع من الجماعة في أحاديثه الإعتيادية"[14].

وكان فرغسون قد تناول في بحثه أربع لغات من بينها اللغة العربية ولكنه أكد أن الإزدواجية ظاهرة موجودة في جميع اللغات الكبرى فكل لغة كبيرة لها مستويان فصيح وعامي...(فالأول أي الفصيح) للكتابة والمناسبات الرسمية وأماكن العبادة، والآخر (أي العامي) للإستعمال اليومي في المنزل والسوق. فالجغرافية والتاريخ يفعلان فعلهما في جميع الكائنات الحية بما فيها اللغة[15].

إلاّ أن هذا التنوع اللغوي الموجودة والمتفاوت من منطقة إلى أخرى ومن فئة ونخبة إلى أخرى، وإن كان يحدث نوعًا من التعايشا على الأرض واحدة إلاّ أن له بعض المخاطر والسلبيات على مقومات المجتمع الجزائري العربي المسلم بسبب التغيرات السريعة التي تحدث في العالم من بينها السياسات الاستعمارية، والغزو الثقافي والعولمة....

ب:السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه اللغة في الجزائر:

إن الدارس لتاريخ الجزائر يجد أن من عوامل قوتها ووحدتها هو دخول الإسلام إليها حيث منح الإسلام للجزائريين العقيدة

الصحيحة التي ساهمت في ربط مقوماتها بأفكار وسلوكات أفراد شعبها وغرس فيهم روح القوة والحرية والنضال.

ولّما كانت لغة الضاد هي سبيل وحدة الجزائر، لأنها لغة القرآن ولغة الدين الإسلامي والعبادة، فقد سعى الاستعمار ومنذ أن وطأة أقدامه الجزائر سنة 1830 إلى منع تعليمها في المدارس ومحاربتها بكل الوسائل وإحلال موضعها اللغة الفرنسية، لأنه كان يدرك:" أن الشعب لن يتحول أول ما يتحول إلاّ من لغته، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا إنقطع من نسب لغته إنقطع من نسب ما ضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ لا صورة محققة في وجوده. فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر...وما ذلت لغة شعب إلا دُل، ولا إنحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار"[16]

إن الاستعمار الفرنسي كان مدركا من خلال سياسته أن اللغة تمثل عامل توحيد وتفريق في آن واحد، فقد كان أول ما قام به هو ضرب لغة الدولة المحتلة وإحلال موضعها لغته قولا وفعلا.

فأمّا قولا فقد جيئ بعدد هائل من المستشرقين والمترجمين الفرنسين إلى الجزائر ليقمو دراساتهم العلمية والأدبية والفكرية والتاريخية على المجتمع الجزائري، واستدعى ذلك العمل حضور مخبر علمي من المستشرقين والمترجمين والمكتشفين لمعرفة واقع البلاد المستعمر.

وأما فعلا فيتجسد ذلك من خلال فرض لغة المستعمر بالقوة على الأهالي والسكان الأصليين، وتضيق الخناق على لغتهم الأصلية.

فالإستعمار الفرنسي لم يأتي بالعتاد الحربي فحسب للقضاء على هذا الشعب وإنما إصطحب معه عتاد أخطر كالمستشرقين والمترجمين والمستطلعين الذين حاولوا ترسيخ نظم وقيم وطبائع وعادات الدولة المستعمرة والقضاء على لغة الشعب وهويته، لأنه وببساطة كان الإحتلال الفرنسي يعتقد أنه يستطيع إلحاق الجزائر بفرنسا ، لذلك فقد حارب اللغة العربية وحاول فرنسة الأرض والشعب وأجبر الجزائريين تعلم الفرنسية ومنع تعلم العربية كما عمل كذلك على إشعال نيران الحرب بين اللغات التي كانت متداولة بين أفراد الشعب الجزائري فسادت الحرب بين الناطقين باللغة العربية والناطقين باللغة الأمازيغية، وفرق بين الفحص والعامية، ولا غرابة في ذلك فقد كانت سياسة فرنسا أنداك هي "فرق تسد" ولا تزال اللغة من بين أهداف الاستعمار السياسية بشتى الطرق ومختلف التقنيات من أجل القضاء على هوية الإنتماء اللغوي العربي بصفة عامة.

وقد ذكر الدكتور "بوز يد ساسي هادف" من جامعة قالمة الجزائري في مقال له أن اللغة كانت وما زالت هدف من

أهداف سياسة الاستعمارية عن طريق:"الدعوة إلى التخلي عن اللغة العربية الفصحي، واستبدالها بلهجة أو لغة أخرى أكثر سهولة، وتناسبا مع متطلبات العصر. فلقد تفنن المحتل في مشارق الأرض ومغاربها- في إقناع بعض العرب بالتخلي عن اللغة العربية الفصحى، متخدا في ذلك طرائق وأساليب جهنمية شتى...فهللت الأصوات تتعالى بالهجوم على الفصحى والترويج للهجات المحلية، بإتهام اللغة العربية أنها لغة عسيرة معقدة، وقواعدها وضوابطها كثيرة مشتتة، يتعدر إستعالها والانقياد لها في حياتهم اللغوية، إذا أرادوا الإبداع والانطلاق في التعبير علما وأدبا وثقافة. ومن بين هذه الصيحات والدعوات التي تتعالى هنا وهناك، والذي تتهم اللغة العربية الفصحى بالجمود والقصور على الإلتحاق بركب الحضارة، والتي تدعوا ..إلى التخلي عنها نذكر:

أ-الدعوة إلى التخلي عن حركات الإعراب.
ب-الدعوة إلى العامية على حساب اللغة العربية الفصحى.
ج-الدعوة إلى إستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني".[17]

وما هذه الدعوات إلاّ صور أخرى مشبوهة للإستعمار تدعو إلى إحياء اللهجات وجعلها لغات رسمية للشعب الجزائري. وما ذلك سوى محاولة لتمزيق وحدة الشعب وتشتيتها، بل من أجل إشعال نيران الحرب بين أبنائها لسهولة الإنقضاض عليها.

وليس أفضل من قول العلامة عبد الحميد بن باديس حين قال:"علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جديد بأن يتخذ لنفسه منزلة لا ثقة به في هذا الوجود، ولا رابطة تربط ما ضينا المجيد بحاضرنا الأعز والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة"[18]

وقد قامت السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه اللغة في الجزائر بغزو الأمة الجزائرية تحت شعارات مختلفة، ومن بينها إيقاظ نار الفتنة بين الناطقين باللغة العربية، والناطقين باللغة الأمازيغية "فقد زعم سياسيوها أن العرب إغتصبوا البربر وفرضوا عليهم لغتهم وطمسوا مآثرهم، فكان أن سموا الفتح الإسلامي للمغرب العربي طغيانا، ولعلنا لا نجد أفضل من الشيخ الإبراهيمي الذي إنبرى يردّ هذه الأباطيل ويسفّه هذه الأفكار، وهو الرجل الذي أوشى قوة الحجة ونصاعة البيان، إنه خليق أن نقدم رأيه شاهدا على تلك الحقبة من تاريخ الجزائر حيث يقول الإبراهيمي في عيون البصائر.

-من قال إن البربر دخلوا في الإسلام طوعًا فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربية عفوً، لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا، لا يمكن الفصل بينهما، ومحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفردقين، إذ رضي البربري لنفسه الإسلام طوعًا بلا إكراه

ورضي للسانه العربية عفوا بلا إستكراه" [19] ثم يظيف الإبراهيمي في المقام نفسه أن البربر والعرب إخوة في الجزائر، وما يجمعهم أكثر مما يفرقهم، فقد صهرهم الإسلام على غرار ما صهر الأوس والخزرج بالأمس إذ "إن الفاتح العربي لهذا الوطن جاءنا بالإسلام ومعه العدل، وجاء بالعربية ومعها العلم. فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب، ولكنه خضوع الأخوة لا خضوع القوة، وتسليم الإحترام لا تسليم الإجرام والعلم هو الذي طوّع البربرية للعربية، ولكنه تطويع البهرج للجيدة، لا طاعة الأمة للسيدة، لتلك الروحانية في الإسلام ولذلك الجمال في اللغة العربية، أصبح الإسلام في عهد قريب صبغة الوطن التي لا تنصل ولا تحول. وأصبحت القريبة عقلية حرة ليس لها بهذا الوطن ضرّة" [20]

فأصول النزعة البربرية في الجزائر حسب الإبراهيمي تعود إلى الإستعمار الفرنسي في أرض الجزائر الذي إستعمل جميع الطرق للتفرقة بين أبناء الشعب الواحد فرمى بسهمه تجاه اللغة والعرق لعله يظفر بمبتغاه، لكنه عاد خاوي الأيدي.

وإستعادت الجزائر سيادتها، وتحصلت على إستقلالها بثمن باهظ ومنذ تلك الفترة والحكومة الجزائرية تسعى لمحاولة إتباع سياسة التعريب في التعليم والدواوين الحكومية، وبالتالي

تأثرت مكانة اللغة الفرنسية في الجزائر قليلا، إلا أنه ضلت المقررات العلمية والتجارية الجامعية تدرب باللغة الفرنسية، وقد قامت سياسة التعليم في الجزائر بدمج اللغة الفرنسية في المناهج ليتعلمها الطفل مبكرا مع بداية تعلمه الكتابة باللغة العربية، وفي بداية التسعينات، وبعد جدال عنيف حول إستبدال اللغة الفرنسية بالإنجليزية في النظام التعليمي، قررت الحكومة الإبقاء على اللغة الفرنسية وتعليم الإنجليزية بداية من العام الأول للمرحلة التعليمية المتوسطة.

وإذا كان ذلك بإختصار شديد ما أمكننا التوصل إليه فيما يخص الواقع اللغوي الجزائري. فإن اللغة العربية بصفة عامة تعلقت بها بعض الشوائك وإلتصقت بهاو أتهمت بأنها لم تعد تواكب العصر، وأنها عاجزة عن إستعاب علوم وفنون ومصطلحات الحضارة المعاصرة، ولا بذيل عن هذا العجز سوى إستبدالها باللغة الأجنبية الأولى و الثانية بمعنا الفرنسية أو الإنجليزية، حسب المدعيين الدين يتفننون في محاولة طمس الهوية العربية الإسلامية.

"إن محاولات إلصاق عامل التخلف والجمود في عالمنا العربي باللغة، تستهدف بالدرجة الأولى التخلي عن أحد أبرز التعبيرات الحضارية في مجتمعنا الإسلامي. فضلا عن كونها

دعوة غير مباشرة للإلتحاق والدوبان في المحيط الثقافي للآخر مهما كان هذا الآخر ولازم ذلك بالقطع واليقين التخلي عن الإسلام عبر التخلي عن القرآن الكريم"[21]

ومما سبق توضيحه فإن اللغة العربية هي أحد عوامل تكوين هوية المجتمع العربي برمته وتوحيدهم لأنها لغة الإسلام، وبالقرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي توحدت أقطاره ونهظت حضارته. ما جعل جهود الغرب المستعمر تنصب عليها فسلك بغية القضاء عليها سبيلين، تمثل الأول منها بمحاولات إستبدالها لغة المحتل كما حدث في الجزائر ومصر وسائل البلاد العربية ،ولما لم ينجح هذا السبيل سلك المعمر سبيلاً آخر يتمثل في إستبدال اللغة العربية باللهجات المحلية العامية وكتابتها بالحروف اللاتينية.

إن اللغة العربية اليوم. كما الأمس تعاني من مجموعة من التحديات العالمية التي تفرضها اللغات الأجنبية، وفي ظل تلك القوانين اللغوية الصارمة التي تفرض التغيير والتي تتعلق بالتحديات التي تفرضها اللغة الإنجليزية على كل لغات العالم، وهي دعائم للهيمنة، وفرض لنظام العولمة بمعناه العام، والتي لا مناص منها كون العالم اليوم يعيش في قرية معلوماتية يؤثر ويتأثر. فهل يمكن للغة العربية أن تتأثر بهذا النظام العالمي

وتصمد في نظام العولمة العابرة للقوميات عن طريق التكنولوجيا العملاقية؟

لقد كانت اللغة العربية غنية بنفسها وبرجالها، وقد كانت في وقت مضى لسان معارف البشر وعنوان حضارتهم، وإننا لا نراها كما يقول الدكتور سعيدي محمد من جامعة مستغانم بالجزائر "إلاّ مستيقظة من كوكبتها، متطلعة إلى غذ مشرق، تلج في جميع الميادين المعرفية العلمية، إذا أراد أبناؤها ذلك. ويجب أن يُريدوا، لأن تطور لغتهم، ما هو إلا تطور لشخصيتهم ومقوماتهم...، وتطوير اللغة العربية وإنتشارها يعني إتخاذها وسيلة حديث ومحاورة وإتصال بحيث يفسح المجال في الاعلام والتربية والتعامل بمختلف ميادينه لا تتطفل عليه لهجة دخيلة، ولا تزاحمها لغة أجنبية، وهذا لا يعني البتة الصدود عن تعلم اللغات المختلفة، فإكتساب لغات العالم وإتقانها ضرورة عصرية، ومن تعلمها، لم يتعلم لسان جديد فحسب، بل هو إكتساب لشخصية جديدة "ومن تعلم لغة قوم أمن شرهم" ولكن المقصد أن تكون السيادة للغة القومية"[22]

فباللغة القومية يكون الإنسان فاعلا حضاريا وبغيرها يصير دائبا متقمصا شخصية غيره. فلن يُخْترق شعب أحب لغته، وتشبث بها، وتعصب لها وإلتف حولها، وما كان العرب

مجتمعين وموحدين إلاّ بلغتهم العربية وهذا مضمون قول أحمد شوقي:

"نَصَحتُ ونحن مختلفون دارًا** ولكن كلنا في الهم شرق[23]

ويجمعنا إذا إختلفت بـــلاد ** بَيَانُ غيرُ مُخْتَلف ونطقٌ

ويؤكد معروف الرصافي هذه المسلمة بقوله:

"وتجمعنا جوامع كُبْريات**وَأولهن سيدة اللغات"[24]

قائمة المصادر والمراجع:

1-المعجم العربي الأساسي: منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ALESCO توزيع لاروس سنة **1989** ص **112**.

2-حسين فهيم"قصة الأنثروبولوجيا" فصول في تاريخ علم الإنسان عالم المعرفة العدد **98** إصدارات المجلس الوطني للثقافية والفنون والآداب-الكويت، فبراير، **1986** ص**18**.

3-إبراهيم الزهرة "الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية" النايا للدراسات والنشر والتوزيع سورية دمشق الطبعة الأولى سنة **2009** ص**21**.

4-عاطف وصفي "الأنثروبولوجية الثقافية" دار النهظة العربية بيروت (ب ط) سنة **1971** ص**31**.

5-جلال الدين السيوطي "المزهر في علوم اللغة" طبع بيروت- لبنان سنة**1986** ص**8**.

6-نايف معروف "خصائص العربية وطرائق تدريسها الطبعة الثانية بيروت سنة **1987** ص **15**.

7-حسن حسين "الإشتقاق في اللغة العربية" مجلة فكرية إسلامية، محور اللغة العربية وتحديات العصر، العدد **78**، **79**، تصدر عن الإتحاد اللبناني للطلبة المسلمين لبنان سنة **1991** ص **8**،

8-د.مها محمد فوزي معاذ "النثروبولوجيا اللغوية" دار المعرفة الجامعية مصر سنة **2009** ص**92**.

9-د.على عبد الواحد وافي"علم اللغة" مطبعة الإعتماد مصر، سنة **1944** ص**139**، **140**.

10-المرجع السابق ص **141**.

11-ابن جني الخصائص، ج1، تح، محمد على النجائر، دار الكتب القاهرة ص **383**.

12-أ.د صالح بلعيد "بحث في مصطلح الممارسات اللغوية في الجزائر" مجلة الممارسات اللغوية مخبر جامعة مولود معمري تيزي وزو الجزائر العدد: **0** سنة **2010** ص **22**، **23**.

13-المرجع السابق ص**23**، **24**.

14-علي القاسمي "علم اللغة وصناعة المجحم" بيروت مكتبة لبنان ناشرون الطبعة الثالثة **2004** ص**40**.

15-إقتباس من مقال د. علي القاسمي "العربية الفصحي وعاميتها في السياسة اللغوية" المجلس الأعلى للغة العربية (الفصحي وعاميتها) منشورات المجلس سنة **2008** ص**200**، **201**.

16-مصطفى صادق الرافعي:"وحي القلم" لبنان بيروت، دار الكتاب العربي، ط**8** ص**36**، **37**.

17-مقال منشور .: د.بوزيد ساسي هادف"الإزدواجية اللغوية في الجزائر المستقلة" -دراسة سوسيو لسانية- قسم اللغة العربية وأدابها، كلية الحقوق والأداب والعلوم الإجتماعية، جامعة **8** ماي **1945**، قالمة، الجزائر ص **3**، **4**،**5** بالتلخيص.

18-محمد الطيب العلوي "التربية بين الأصالة والتغريب" منشورات دحلب حسين داي الجزائر سنة **1997** ص **154**.

19-د.سعيدي محمد "اللغة العربية والبناء الحضاري للأمة" من جامعة مستغانم- مجلة اللغة والإتصال العدد **6** مارس سنة **2010** وهران، الجزائر ص **145**.

20-محمد البشير الإبراهيمي "آثار الإبراهيمي" عيون البصائر ج2 الجزائر، الطبعة الثانية سنة **1987** ص **222**.

21-مجلة المنطلق﴾ مجلة فكرية إسلامية، العدد **78**، **79** ذو القعدة. ذو الحجة **1411**ه/ أبار حزيران سنة **1991** ص**5**.

22-د.سعيدي محمد "مجلة اللغة والاتصال" مرجع سبق ذكره ص **148**، **149**.

23-ينظر أحمد شوقي"الشوقيات" لبنان بيروت دار الكتاب العربي ج الثاني ص **76**.

24-د.سعيدي محمد، المرجع السابق ص**139**.